(١٠٧)

# فى طريق العودة
# من تبوك إلى المدينة

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾. (سورة التوبة الآيات: ١٠٧ - ١١١)

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾. (سورة التوبة الآيات: ١٠٤ - ١٠٦)

* * *

«الطريــق من تبوك فى اتجاه المدينة، وســط صحــراء ممتــدة مترامية، قاحلة موحشــة، لا يدركها البصر، المســلمون يغذون المسير عائدين، وقد أرخى الليل سدوله وهدأت الأصوات إلاّ من حفيف السائرين ودبيب الخيل والعير.. النبى – عليه السلام – على راحلته، يسير من خلفه نفر من الصحابــة فيهم أبو قتادة.. لا تغيب عيونهم عنــه حرصًا عليه.. أبو قتادة يلمح النبى – عليه السلام – وقد خفق خفقة على راحلته ومال على شــقه، فيطير إليه ويســنده.. النبى عليه السلام ينتبه من خفقته..».

النبى : (والظلام دامس) من هذا؟

أبو قتادة : أبو قتادة يا رسول الله، خفت أن تسقط فدعمتك (سندتك)

النبى : حفظك الله كما حفظت رسوله..

* * *

«على الطريق بعد فترة.. وعين أبى قتادة ومن معــه لا ترتفع عن الرحمة المهــداة.. يلاحظ أبو قتــادة أنه – عليه الســلام – قــد أخذته خفقة أخــرى ومال على شــقه، فيطير إليه ويســنده، فينتبــه النبى – عليه الســلام – على أبى قتادة فيدعو له.. ويسأله..».

النبى : يا أبا قتادة..

أبو قتادة : لبيك يا رسول الله

النبى : هل لك فى التعريس (النزول ليلا للراحة)؟

أبو قتادة : ما شئت يا رسول الله..

النبى : انظر مَنْ خلفك..

«أبـو قتـادة يتفقد من وراءه، فيجد ثلاثة من المسلمين..».

النبى : (لأبى قتادة) ادعهم..

أبو قتادة : (مناديًا على الثلاثة) أجيبوا رسول الله..

«يسـارع الثلاثة إلى الرحمة المهداة، فيهيئون مكانًا مع أبـى قتادة لينزل النبى عليه السـلام وينزلوا معه فيـه.. ما إن فرشوا الأديم وارتاحت الجنـوب، حتى راح الجميع من فرط التعب فى سـبات عميق وقد احتضن أبو قتادة «إداوة» (إناءً صغيرًا) فيها ماء و«رِكْوة» (إناءً صغيرًا من الجلد) ليشرب فيها..».

* * *

«فى الصباح وقد ارتفعت الشـمس وأرسـلت حرارتهـا.. النبـى - عليه السـلام - ومن معه يتنبهون من نومهم على وهج الشمس..».

المسلمون : إنَّا لله قد فاتنا الصبح!

النبى : (فى بساطة) لنغيظن الشيطان كما غاظنا..

«النبـى - عليه السـلام - يتوضـأ ببعض من ماء «الإداوة»..

النبى : يــا أبا قتادة احتفظ بما فى «الإداوة» و «الركوة»، فإن لهما شأنًا..

«النبى – عليه الســلام – يؤم من معه لصلاة الفجر، ويتلو فى صلاته آيات من سورة المائدة، حتــى إذا مــا فرغوا من الصــلاة انصرف بهم – عليه السلام – ليلحقوا بالمسلمين..».

النبى : (لرفاقه) أما إنهم لو أطاعوا أبا بكر لرشدوا..

أحدهم : وما ذاك يا رسول الله؟

آخر : (مجيبًــا) إن أبا بكر وعمــر أرادا أن ينزلا على الماء، فنزل الناس على غير ماء بفلاة من الأرض..

«يبدو فى الأفق عســكر المسلمين وقد أجهدهم الطريق وكادت أعنــاق الخيل والرجال والركاب تقطع عطشًــا.. يقترب النبى – عليه الســلام – ومــن معه، فيدعــو إليه «بــالإداوة» و«الركــوة».. يقربهمــا منه أبو قتادة.. النبى – عليه الســلام – يتنــاول «الركوة» ويفرغ ما فى «الإداوة» فيها، ثــم يضع أصابعه عليها فأخذ الماء يفيض من بين أصابعــه وهو ينادى على الناس، فأخذوا يقبلون ويستقون والماء يفيض حتى ارتووا وارتوت الخيل والركــاب وهم لا يصدقون ما يشاهدون..».

النبى : (وهو يلتفت لأبى قتادة) احتفظ «بالركوة» و«الإداوة»..

* * *

«قافلة العودة فى مســيرها وقــد مرت بوادى الناقــة – ويقــال له وادى المشــقَق – وفيه فاض

الماء من «وشل» ضحل بدعاء الرحمة المهداة حتى شـرب الناس ماشاءوا وهم يسـمعون للماء خريرًا عجبًا..».

* * *

«ببعض الطريق، نفر من المنافقين وقد انتحوا جانبا يتآمرون على الرحمة المهداة.. يتمنـون أن يسلك فـى عودتـه طريق «العقبة» لا طريق الوادى ليتحينوا فرصة للفتك به!!».

أحدهم : (لمن معه) إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى!

الآخرون : (مصادقين) أصبت!

* * *

«فـى الطريق، وقد كشـف الله للنبى – عليه السـلام – مكرهم.. النبى يبطن ما عرف، ويأمر بمن ينادى على الناس..».

المنادى : (مناديًا) يا معشـر المسلمين، إن رسول الله أخذ العقبة فلا يأخذها أحد، واسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع.

«المسلمون يميلون فى مسيرهم إلى حيث أشـار المنـادى إلـى بطـن الـوادى.. إلا المنافقون الذين مكروا وتآمروا.. تلثموا واسـتعدوا ليسلكوا طريق العقبة ليتحينوا بغتة لينقضوا فيها لدفع النبى – عليه السلام – إلى بطن الوادى!».

* * *

«النبى – عليه السلام – على ناقته بطريق العقبة، عمار بن ياسر آخذ بزمامها، وحذيفة بن اليمان يسوق من خلفها.. بعض المنافقين يشرعون فى تغشى مسيرة النبى – عليه السلام – فتنفر الناقة حتى سقط عنها بعض المتاع – حذيفة بن اليمان يرتد إليهم غاضبًا يضرب وجوه رواحلهم بمحجن فى يده..».

حذيفة بن اليمان : (وهو يضرب بمحجنه) إليكم إليكم يا أعداء الله.. إليكم إليكم يا أعداء الله!

«المنافقون ينفرون متفرقين وقد شعروا بأن النبى – عليه السلام – قد انكشف عنه سترهم، ينحطون من العقبة مسرعين ليخالطوا الناس فى بطن الوادى فلا يتعرف عليهم أحد وسط الزحام..».

النبى : (لحذيفة) هل عرفت أحدًا من الركب الذين رددتهم؟

حذيفة بن اليمان : يا رسول الله قد عرفت رواحلهم.. كان القوم متلثمين فلم أبصرهم من ظلمة الليل..

النبى : (لحذيفة وعمار) هل علمتما ما كان من شأنهم وما أرادوا؟!

حذيفة وعمار بن ياسر : لا والله يا رسول الله!

النبى : (لصاحبيه) فإنهم مكروا ليسيروا معى فإذا طَلعْتُ العقبة زحمونى فطرحونى منها.. قد أخبرنى الله تعالى بأسمائهم وسأخبركم بها إن شاء الله تعالى..

حذيفة وعمار : أفلا تأمر بهم يا رسول الله إذا جاء الناس أن تُضْرب أعناقهم؟!

النبى : أكـره أن يتحدث النـاس ويقولوا: إن محمدًا قد وضع يده فى أصحابه!

«النبى يسر إلى حذيفة وعمار بأسماء المنافقين ولكنه يوصيهما أن يكتما ما أسَرّ به إليهما..».

النبى : (لصاحبيه) اكتماهم، فإذا أصبحت فاجمعاهم لى.

* * *

«فـى اليوم التالى وقد ذاع الخبر.. أسـيد بن حضير يسـرع غاضبًا إلى رسـول الله – صلى الله عليه وسلم».

أسيد بن حضير : يـا رسـول الله، ما منعك البارحة من سـلوك الوادى؟!.. (يستدرك) فقد كان أسهل من العقبة!

النبى : يـا أبا يحيى أتدرى ما أراد بـى المنافقون وما هموا به؟.. (يسـتأنف) قالوا: نتبعه من العقبة، فإذا أظلم عليه الليل قطعوا أنسـاع (جمع نسـع وهو سير عريض لشد الحقائب والرحال) راحلتى ونخسوها حتى يطرحونى عنها!

أسيد بن حضير : يـا رسـول الله، قد اجتمـع الناس ونزلـوا، فمر كل بطن أن يقتـل الرجل الذى هَمَّ بهذا منهـم، فيكون الرجل من عشـيرته هو الذى يقتله، وإن أحببت والذى بعثك بالحق فنبئنى بأسمائهم فلا أبرح حتى آتيك برؤوسهم!

النبى : يا أسـيد، إنى أكره أن يقول النـاس إن محمدًا قاتل بقوم حتـى إذا أظهره الله تعالى بهـم أقبل عليهم يقتلهم.. إنى أكـره أن يقـول الناس إن محمدًا لمـا انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده فى قتل أصحابه!

أسيد : (مراجعًا) يا رسول الله؟ فهؤلاء ليسوا بأصحاب!

النبى : أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلاّ الله؟!

أسيد : بلى، ولا شهادة لهم!

النبى : أليس يظهرون أنى رسول الله؟!

أسيد : بلى، ولا شهادة لهم!

النبى : فقد نهيت عن قتل أولئك!

* * *

«النبى – عليه السلام – فى خبائه، يدعو إليه حذيفة بن اليمان فيرسله فى طلب المنافقين تباعًا.. واحدًا وراء آخر، يسألهم تباعًا ما حملهم على هذا، فيرد كل منهم بما شاء، فلا يضيق عليهم النبى ولا يطلع على سرهم أحدًا إلاّ حذيفة بن اليمان وعمار اللذين أطلعهما على أمرهم وأوصاهما بكتمانه فلا يعرفه أحد آخر!.

* * *

«النبى – عليه السلام – وسط أصحابه وقد اقتربوا من المدينة، يلح عليه بعضهم أن يفشى سر المنافقين فما يزيد عن أن يقول لهم..».

النبى : فى أصحابى اثنا عشر رجلاً منافقًا لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط!..

بعض المسلمين : (فرحين وقد ظهرت المدينة فى الأفق البعيد) ها هى المدينة قد أطلت يا رسول الله من بعيد..

النبى : إن بالمدينة أقوامًا ما سـرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلاَّ كانوا معكم.

المسلمون : يا رسول الله، وهم فى المدينة؟!

النبى : نعم، وهم بالمدينة. حبسهم العذر.

* * *

«بذى أوان.. بلدة على بعد ساعة من المدينة.. المسلمون يحطون الرحال طلبًا لبعض الراحة قبل أن يدخلوا المدينة، تأتى الأخبار بأن المنافقين قد أتموا تجهيزَ المسجد الذى بنوه لتشتيت المسلمين ودعوا الرسول – عليه السلام – قبل تبوك للصلاة فيه فاعتذر لهم بأنه على سـفر، وأمهلهم لحين عودتـه من تبوك.. وها هى طلائع منهم تسـعى للقائـه على الطريق إلى المدينـة يحاولون معاودة الكرّة.. وإنه عليه السـلام ليعلـم مـن أمرهم أنهم أهـل نفـاق لا يبغون بذلك إلاّ كيـدًا وبثًّا للفرقة للمسلمين..».

* * *

«النبى – عليه السلام – خالٍ لنفسه فى خبائه، يتعبد إلى ربه ويناجيه.. يتنزل عليه الروح الأمين عليه السلام، فيوحى إليه من آيات ربه..».

جبريل : (يتلو على محمد): ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ (سورة التوبة الآيات: ١٠٧ - ١١٠)

(يرتفع الوحى)

«النبى - عليه السلام - يخرج إلى أصحابه، فيدعو إليه مالك بن الدخشم ومعمر بن عدى وعاصم بن عدى وعامر بن السكن».

النبى : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فهدموه وحرقوه!

(يلتفت إلى المسلمين) لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه.. فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين.

* * *

«وقد أطل المسلمون على مشارف المدينة - وغمرتهم المسرات بالعودة إلى الديار حيث تركوا الأهل والصغار..».

النبى : (وهو يرنو ببصره إلى المدينة) هذه طابة.. أسكنيها ربى.. تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد..

«وقد ظهر جبل أحد شامخًا فى بطن الأفق..».

النبى : وهذا أحد.. جبل يحبنا ونحبه..

«عنـد ثنية الوداع.. وقد سـبقت الرسـل إلى المدينة بوصول الرحمة المهداة والأحباب.. تسارع النساء والصبيان إلى مشـارف المدينة، يستقبلـن موكب العائدين بالأفراح..».

النساء والصبيان : (ينشدون)

طلـع البـدر علينـا مـن ثنيـات الـوداع
وجب الشكر علينـا مـا دعـا لله داع

* * *

«النبـى – عليه السـلام – يتجه والمسـلمون ناشـدين المسجـد النبوى ليركع بهم ركعتين كما اعتاد لدى وصوله من سفر إلى المدينة..».

«النبى – عليه السـلام – جالس إلى المسلمين بعـد أن فرغوا من الصلاة، يتوافد إليه المتخلفون الذين تخلفوا عن الخروج معه إلى تبوك، عددهم قريب مـن الثمانين.. طفقوا يعتـذرون ويحلفون على صدق أعذارهم، والنبى – عليه السلام – لا يكذبهم ويقبل منهم علانيتهم ويبايعهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله..»

«النبى – صلى الله عليه وسلم – فى طريقه من المسـجد إلى بيته.. يمر بنفر من المسلمين مقيدين بسوارى المسجد!».

النبى : (للصحابة مدهوشًا) من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسوارى؟!

أحد المسلمين : هذا أبولبابة وأصحاب له تخلفوا، وقد اعترفوا بذنوبهم، وقيدوا أنفسهم وعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى ترضى عنهم وتطلقهم أنت يا رسول الله.

النبى : لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم، ولا أعذرهم حتى يكون الله هو يعذرهم، وقد تخلفوا عنى ورغبوا بأنفسهم عن غزو المسلمين وجهادهم!

«النبى - عليه السلام - يمضى إلى بيته، وأنظار المقيدين بالسوارى معلقة به بين اليأس والرجاء!».

* * *

«بيت النبى - عليه السلام - وهو خالٍ إلى نفسه فى هدأة الليل، يتهجد ويتعبد إلى ربه ويناجيه.. يتنزل عليه الروح الأمين فيلقنه من كلمات ربه..».

جبريل : (يتلو على محمد) ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ (سورة التوبة الآيات: ١٠١ - ١٠٦)

(يرتفع الوحى)

«أم سلمة بقريب من خلوة النبى - عليه السلام - تلحظه متبسمًا وقد ارتفع عنه الوحى..».

أم سلمة : ما يضحكك يا رسول الله؟!

النبى : تيب على أبى لبابة.

أم سلمة : (فرحةً) أوذنه بذلك؟

النبى : ما شئت..

«أم سلمة تبادر فترسل إلى أبى لبابة وصحبه أن الله تعالى قد تاب عليهم..».

رسول أم سلمة : أبشر فقد تاب الله عليك..

«المسلمون يهللون ويكبرون فرحين ويسارعون إلى أبى لبابة لفك قيده ومن معه من الموثقين..».

أبولبابة : (معترضًا) لا والله، حتى يأتى رسول الله فيكون هو الذى يطلقنى.

أحد المسلمين : نحن فى جوف الليل، ولن يخرج إلاّ لصلاة الصبح!

أبولبابة : (مصممًا ومن معه) حتى يأتى رسول الله فيكون هو الذى يطلقنا..

* * *

«المسجد النبوى فى الصباح، بعد صلاة الفجر - وقد فك النبى - عليه السلام - وثاق أبى لبابة

والوثقين معه بين تكبيرات المسلمين.. يجلس - عليه السلام - إلى أصحابه فيتلو عليهم ما تنزل من سورة التوبة فى أمر أبى لبابة والوثقين معه..».

أحد المسلمين : من المرجون لأمر الله يا رسول الله، الذين تقول الآيات إن الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم.

آخر : لعلهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع!

«النبى - عليه السلام - لا يعقب، ولكن يسأل أصحابه عنهم..».

* * *

«كفار قريش وقد دأبوا على النكث بعهودهم ليس فقط مع المسلمين، وإنما مع كل من والاهم.. فقد مكرت قريش لقتل النبى عليه السلام، وحشدت لذلك ليلة هجرته، ولكن تدبيرها أخفق وهاجر النبى عليه السلام وصاحبه أبو بكر سالمين إلى المدينة المنورة.. تروى سورة الأنفال ما كان من ذلك فتقول: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (سورة الأنفال الآية: ٣٠).. وفى ذلك قالت سورة الإسراء: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (سورة الإسراء الآية: ٧٦).. وظلوا يفتعلون الأفاعيل

لمهاجمة الإسلام والمسلمين والكيد للرسول عليه الصلاة والسلام.. دخلت قريش فى حلف مع بنى بكر يوم عهد الحديبية، وظلت تحرضها لتعتدى على خزاعة التى حالفت المسلمين.. بغيًا من بنى بكر وظلمًا وعدوانًا..».

«استنجدت خزاعة بالنبى عليه الصلاة والسلام، فلبى نداءهم، ونهض والمسلمون لنجدتهم بعد أن ذاقت خزاعة الأمرين من بنى بكر ومن قريش..»

«النبى عليه الصلاة والسلام فى ابتهاله ودعائه إلى ربه، وقد تلقى استغاثة خزاعة لنجدتها من بغى المشركين وبنى بكر.. يتنزل عليه الروح الأمين، فيلقى إليه من كلمات ربه..».

جبريل : (يتلو على محمد) ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة الآيات: ١٣ - ١٥).

(يرتفع الوحى)

* * *

«المسجد النبوى بالمدينة، النبى - عليه السلام - ومن حوله المسلمون وقد وصلت طلائع

البشـــارة التى بعث بها خالد بن الوليد من دومة الجندل.. مع مبعوث خالد «قباء» حســـان أخى أكيدر.. «القبـــاء» بديع المنظر من ديباج مخوص بالذهب، فجعل المسلمون ينظرون إليه ويلمسونه بأيديهم ويتعجبون منـــه.. لمحتهم عين الرحمة المهداة، فناداهم عليه السلام..».

النبى : (للمسلمين) أتعجبون من هذا؟! فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا!

«يلتفـــت المســـلمون على «جلبـــة» فى مدخل المســـجد، يظهر خالد بن الوليد وفى أعقابه ثلة من الفرسان وقد اقتاد بعضهم أكيدر بن عبد الملك وأخـــاه مُضَـــادّ.. خالد يميم مباشـــرة إلى مجلس الرحمة المهداة، فيلقى السلام، بينما يستقبله – عليه السلام – بالبشر والحفاوة وقد سبقت إليـه أنبـاؤه.. مـن خلفـه يبـدو «أكيدر» و«مُضَاد».. ما إن يرى أكيدر رســـول الله حتى يبادر فيســـجد، ولكـــن النبى – عليه الســـلام – يومئ إليه بيده مرتين لينهض.. النبى – عليه الســـلام – يبادر فيذهب وحشته، ويطمئنه حتى أفرخ روع الرجل ومن معه وشاعت الطمأنينة فى حناياهم..»

«النبى عليه السلام، وقد عرض عليهم الإسلام، وبســـط لهم أحكامه، وتلا عليهم شيئًا من الذكر الحكيم، تاركًا لهـــم الحرية فى أن يحتكموا إلى ما تهديهم إليـــه قلوبهم.. على ملامحهم تفيض

علامـات الإيمان، فينطقون بالشـهادة بين فرح وحبور وتكبيرات المسـلمين.. النبى عليه السلام وقـد أقر ما صالح عليه أكيـدر خالد بن الوليد، ينادى علـى كاتبه ليمليه العهـد والأمان الذى قطعه.. الكاتب يحضر رقعة ويتهيأ للكتابة..».

النبى : (يملى على كاتبه) بسـم الله الرحمـن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد سـيف الله فى دومة الجنـدل وأكنافها (جوانبها ونواحيهـا): أن لنا الضَّاحية (أطـراف الأرض) من الضَّحْل (قليـل الماء) والبور والمَعَامى (الأرض التـى لا عمارة فيها) وأَغْفال الأرض (لا أثر فيها) – والحلقـة والسـلاح والحافر والحصن، ولكـم الضَّامنة مـن النخل (الحافة بالنخيـل) والمعين من المعمور (الأرض العامرة بالمـاء)، ولا تُعْدل سـارحتكم (لا تصرف ماشـيتكم عن المرعـى) ولا تُعَدّ فاردتكـم (أى لا تحصى عليكم) ولا يُحْظر عليكم النبات.. تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق، ولكم بذلك الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر من المسلمين.

«النبى – عليه السلام – يتفقد خاتمه ثم يختم الكتاب بظفره، وأكيدر وأخوه وقومهما لا يخفون فرحهم وقد وضع الرسـول عنهم الجزية وأخذوا يتهيأون للعودة إلى الديار مشـيعين بالبسـمات وتكبيرات المسـلمين فرحًا وحمدًا بمن دخلوا فى واحة الإسلام..».

* * *

«دار كعب بن مالك، خالٍ إلى نفسه وقد بلغ منه الهم واجتاحته الخواطر.. قد بلغه الآن أن النبى – عليه السلام – يتفقده ويسأل عنه.. وإنه ليعلم أن سعد بن معاذ رد غيبته فى تبوك وقال للرسول – عليه السلام – : ماعلمت عليه إلاّ خيرًا.. قد صدق ابن معاذ، ولكن أتراه أصاب فى إعذاره له عن تخلفه عن الخروج مع رسول الله إلى تبوك؟!.. كعب بن مالك يقول لنفسه إنه لم يتخلف عن رسول الله بعد بدر، وإنه ليعجب لأمر نفسه: لم تخلف هذه المرة عن رسول الله؟!.. يقول لنفسه: لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تبوك، ولا اجتمعت عندى راحلتان قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة؟!!.. أجل كان الحر شديدًا، ولكن رسول الله دعاهم إلى الخروج.. إنه ليذكر يومها أنه أزمع الخروج مع النبى – عليه السلام – وأنه طفق يغدو لكى يتجهز، ولكنه يرجع فى كل مرة دون أن يقضى من جهازه شيئًا.. وإنه ليذكر أنه ظل على تردده حتى أوشك المسلمون على الخروج وهو يمنّى نفسه بأنه سوف يتجهز ويلحق بهم بعد يوم أو يومين.. ولكنه ظل على تردده ونكوصه حتى تفرط الغزو وقعدت عزيمته عن اللحاق بالمسلمين.. وإنه ليذكر أنه لم يفارقه الندم منذ خرجوا وقعد، وزاد همّه وحزنه أنه

لـم يــر فى المتخلفــين إلاّ رجــلا مغموصًا عليه بالنفــاق (مطعونًــا عليه فى دينــه بالنفاق)، أو رجلاً ممن عــذر الله من الضعفــاء.. وإن الحزن ليقطع نياط قلبه حين سمع أن رســول الله سأل عنه وهــو جالس فى القوم بتبوك وقال: «ما فعل مالك؟»، فســخر منه رجل من بنى سلمة وقال: «يا رســول الله، حبســه برداه ونظره فى عطفيه (كناية عن زهوه وإعجابه بنفسه)..» لله در سعد ابــن معاذ، لقد غضب له وقال للرجل «بئس ما قلت!» والله يا رســول الله، مــا علمت عليه إلاّ خيرًا» ... وإنه ليحز فى نفســه أن رســول الله ســكت ولم يخض فيه بشــىء يكرهــه.. ها هى الأيام قد انصرمت - يقول كعب لنفســه، وها هو الرســول والمســلمون قد عادوا، كيف به يخــرج من ســخط رسول الله - عليه السلام - إذا لاقاه غـدًا!!.. أيكذب أو يتمحك كما كذب أو تمحك المعتذرون؟! ولكن كيف له أن يكذب على رسول الله.. (وقد حزم أمــره) هو الصدق إذن.. هذا ما يليق به ويليق بالحديث إلى الرحمة المهداة..».

* * *

«المسجد النبوى، النبى - عليه السلام - فى صحابته وقد دخل كعب بن مالك يسبقه خجله، فيلقى بالسلام على رسول الله..

النبى : (وقد تبسم تبسّم المغضب) تعال..

«كعب بن مالك يمشى حتى يجلس بين يدى الرحمة المهداة..».

النبى : ما خلفك؟!.. ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟!

كعب بن مالك : بلى والله، إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر، وقد أُعْطيتُ جدلاً (فصاحة وقدرة علــى الكلام)، ولكنى والله قــد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك علــىّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد (تغضب) علىّ فيه وإنى لأرجو فيه عقبى الله.. (يســتأنف وقد حزم أمره) لا والله، ما كان لى عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك!

النبى : (للصحابــة) أما هــذا فقد صدق.. (يلتفــت إلى كعب) فقم حتى يقضى الله فيك.. (للمسلمين) لا يكلمنّ أحدٌ أحدًا من هؤلاء الثلاثة.. لا تكلموا رجلاً منهم ولا تجالســوهم حتى آذن لكم!

«كعــب بن مالــك ينهــض محزونًــا فيغادر المســجد، بينما يسارع فى أعقابه رجال من بنى سلمة..».

بنو سلمة : (مواســين) والله مــا علمناك كنت أذنبــت قبل هذا، ولقد عجــزت ألاّ تكون اعتذرت إلى رســول الله بما اعتذر إليه المتخلفــون، قد كان كافيك ذنبك اســتغفار رســول الله.. (ملحين) ما علمناك أتيت قط غير هذا الذنب، أفلا اعتذرت إليه فيسعك ما وسع المتخلفين؟ يكفيك استغفار رسول الله!

«بنو سـلمـة يلحون فـى مراجعة كعب حتى كاد أن يعود إلى النبى – عليه السـلام – ليرجع أمامه عما قال.. ولكنه يتماسك فيسألهم..».

كعب بن مالك : هل لقى هذا معى أحد؟

بنو سلمة : أجـل.. رجلان قالا مثـل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك!

كعب بن مالك : من هما؟

بنو سلمة : مرارة بن الربيع العَمْرى، وهلال بن أمية الواقفى..

«كعب بن مالك يقول لنفسـه: هذان صالحان قد شـهدا بدرًا فيهما أسوة.. كعب ينطلق راضيًا عما تحدث به عن صدق إلى رسول الله..».

* * *

«المسجد النبوى، والمسلمون مشغولون بالثلاثة أصحاب رسول الله الذين نهى – عليه السلام – عن الحديث إليهم..

البعض : هلكوا إذا لم ينزل عذرهم!

آخرون : عسى الله أن يتوب عليهم.

* * *